# الولي والمجتمع :

# مدخل لدراسة تاريخ الخوف بالمغرب الحديث

محمد المهناوي
كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الجديدة

## I – من هنا بدأ تاريخ الخوف.

إلى حدود مطلع القرن الحادي عشر كان الغرب الاسلامي يعيش نفس المناخ الفكري الذي كان سائدا بالعالم الاسلامي، من تطور للثقافة الاسلامية، وانتشار للفكر الفلسفي، وجدل فرق علم الكلام. وضمن هذا المناخ العلمي المتميز كان ينمو الفكر الصوفي، ويتطور في صراعه مع الاتجاه العقلاني. وبمجرد انتقال التصوف إلى ممارسة تجمع بين السلوك والنظر، دخل الفقهاء حلبة الصراع، فهاجموا الفكر الصوفي[1].

بعد ذلك، بدأ التراجع التدريجي للفقهاء أمام المد الفكري الصوفي، وخاصة عندما دخل الفكر الاسلامي في محاولة توفيقية بين الحقيقة والشريعة، أي بين علم الباطن (التصوف) وعلم الظاهر (العلوم الشرعية). وكان في مقدمة التوفيقيين أبو حامد الغزالي (ت. 1111) وابن العربي (ت. 1148). ويعتبر إحراق كتاب "إحياء علوم الدين" آخر محاولة كبرى في حرب الفقه والفقهاء المالكيين ضد التصوف والفكر الصوفي بالغرب الاسلامي. وقد تم هذا في عهدي علي بن يوسف (حكم 1107–1143) وتاشفين بن علي (حكم 1143–1149)، وذلك بحجة ودريعة مواجهة البدع، وإتلاف كل الكتابات التي لها علاقة بممارسة البدعة نظرا وسلوكا[2]

---

[1] حسين مروة : النزعات المادية في الفلسفة العربية الاسلامية، ج 2، دار الفرابي، بيروت 1979، ص 299-310.

[2] محمد القبلي : الدولة والولاية والمجال في المغرب الوسيط : علائق وتفاعل، دار توبقال، البيضاء، 1997، ص 38-39.

وكانت فترة انتقال السلطة من المرابطين إلى الموحدين فرصة مواتية لرد الاعتبار رسميا للتصوف والمتصوفة، والإسكات النهائي لصوت المعارضين، حيث عمد الخليفة أبو يوسف يعقوب المنصور (حكم 1184–1199) إلى منع بعض كتب الفروع، وإحراقه لعدد منها. فشكل هذا القرار الخليفي هجوما مباشرا على الفقهاء المالكية، واعتبر انتصارا نهائيا للتصوف، فدشن بالتالي بداية مرحلة جديدة وطويلة لتاريخ التصوف بالمغرب[3]. فانطلاقا من القرن الثالث عشر للميلاد أخذ التصوف يسير بخطى ثابتة نحو الهيمنة المطلقة على الثقافة المغربية، وذلك بموازاة مع تطور مكانة المتصوفة بالمجتمع المغربي. وانتقل الصراع إلى داخل التصوف أو لنقل نحو الإجهاز التدريجي على الاجتهاد النظري والفكري أو ما تبقى منه ضمن علم التصوف. وبدأنا مرحلة الصراع بين التصوف السني والبدعة[4]

داخل هذا الصراع، بدأت تظهر الحاجة إلى تنظيم الممارسة الصوفية، وإلى من يضع ضوابط عامة لها، وجعل التصوف ممارسة شعبية، في متناول الجميع، وإخراجها من الاحتكار الطائفي أو ما شابهه، أي بلغة عصرنا، دمقرطة التصوف، وجعله جماهيريا. تلك هي المهمة التي حاولت الشاذلية (نسبة إلى أبي الحسن الشاذلي ت. 656هـ/1258م) القيام بها، كأول خطوة ناجحة نحو توحيد الممارسة الصوفية بالمغرب سلوكا ونظرا، وصبغها بمميزات تخصها، أهمها البساطة والابتعاد نظريا

[3] محمد الشريف، المستفاد، القسم الأول : الدراسة، منشورات كلية الآداب، تطوان 2002، ص 61-76.

[4] انظر في الموضوع :
- عبد الله نجمي : التصوف والبدعة بالمغرب، طائفة العكاكزة، ق. 16-17م، منشورات كلية الآداب، الرباط، 2001.
- الشاذلي عبد اللطيف : التصوف والمجتمع نماذج من القرن العاشر الهجري، منشورات جامعة الحسن الثاني، البيضاء، 1989.
- عبد المجيد الصغير : إشكالية إصلاح الفكر الصوفي في القرن 18-19، منشورات دار الآفاق، الجديدة، 1988.
- أحمد الوارث : الأولياء والمتصوفة ودورهم الاجتماعي والسياسي في المغرب خلال القرنيين السابع عشر والثامن عشر، أطروحة دكتوراه دولة، مرقونة، 1998.
- Mohamed kably, Société pouvoir et religion au Maroc à la fin du moyen âge, Ed. M. Larose, Paris 1986.

عن التفلسف، والوسطية سلوكيا بمنأى عن كل إغراق في التقشف أو انحياز طائفي[5]

وبعد مرور قرابة القرنين، احتاجت الشاذلية إلى من يعيد قراءتها، ويجدد معالمها، ولاسيما بعد أن احتل المتصوفة والتصوف موقعا متميزا بمغرب هذه الفترة، فقام محمد بن سليمان الجزولي (ت. 870هـ/1465م) وأحمد زروق البرنسي الفاسي (ت. 895هـ/1490م) بإعطاء دفعة جديدة للطريقة الشاذلية في مواجهة وتقويم كل انفلات باسم محاربة البدع والدفاع عن التصوف السني[6]

أمام هذه الحالة التي بلغتها الثقافة المغربية، كان من البديهي أن يتوزع العلماء بين مؤيد ومنافح عن التصوف، ومتعاطف ومتفهم للتصوف ولأهله، فقامت النخبة المثقفة بالمغرب بتدوين التراث المنقبي الشفهي للمتصوفة. وواكب هذا التراث التطورات التي لحقت بالتصوف، كما أثر فيه، وعكس في مجمله الصراعات التي كانت دائرة بمجتمع الصوفية، حيث كانت كتب التراجم والمناقب في بدايتها (أي مع بداية القرن الثالث عشر) تتوخى تقعيد التصوف المغربي وإبراز أهمية الولاية[7]. لتقوم بعد ذلك بدور أساسي في تسنين هذه الممارسة، ومحاربة التداعيات التي كان يشهدها الفكر الصوفي على المستوى الواقعي الشعبي. فكانت، في بعض الأحيان، تسفه بالتيارات الخارجة عن المذهب المالكي والعقيدة الأشعرية، وتصوف الجنيد في طبعته المغربية الشاذلية الجزولية الزروقية[8]. فأبرزت أهمية العلم مع الإقرار بوجوبية الأخذ بالتصوف، حيث بدا جليا، وخاصة بعد القرن السادس عشر، التوجه نحو نموذج الشيخ العالم. فإذا كان أحمد زروق قد أكد في الربع الأخير من القرن الخامس عشر، أن كل "من تصوف ولم يتفقه فقد تفسق"، فإن الحسن اليوسي في النصف الثاني من القرن السابع عشر يذكر مقولة كانت شائعة

---

[5] انظر :
- محمد مفتاح : التيار الصوفي والمجتمع في الأندلس والمغرب أثناء القرن الثامن الهجري، أطروحة دكتوراه دولة، 1981، مرقونة.
- أحمد الوارث، المرجع السابق.

[6] الشاذلي : مرجع سابق، ص 137. عبد المجيد الصغير، إشكالية، مرجع سابق، ص 38-39.

[7] انظر الدراسة التي قام بها محمد الشريف لكتاب المستفاد، مرجع سابق، وخاصة ص 170-241.

[8] نجمي، مرجع سابق، ص 11. مفتاح، مرجع سابق، ص 403.

وقتئذ، ويثمنها، مفادها "من تفقه ولم يتصوف فقد تفسق، ومن تصوف ولم يتفقه فقد تزندق، ومن جمع بينهما فقد تحقق"[9]. ويبدو أن هذه المقولة قد أدت إلى اشتراك العلماء مع العامة في بعض الشيوخ والأولياء (التصوف السني)، وغيابهم عن العامة في بعض الشيوخ والأولياء (التصوف الروحاني الشعبي). والملاحظ، أن النوع الأخير هو الذي كان طاغيا زمن الحسن اليوسي[10]

## II- مقومات هذا الخوف.

### 1- مركزية الولي بمجتمع يشتكي من كل شيء.

منذ القرن الثالث عشر، على الأقل، دخل الغرب الاسلامي في مرحلة طويلة من الانحطاط والتدهور مست كل المجالات، وكلما اقتربنا من القرن السادس عشر (القرن العاشر للهجرة)، إلا وكان الوضع يزداد تأزما، وسهل على المرء المعاصر لهذه الأحداث، تصديق الشائعة التي كانت تروج عن اقتراب نهاية العالم. فقد انقلبت الأوضاع رأسا على عقب، إذ ضاعت الأندلس (الفردوس المفقود)، واحتل النصارى أغلب المدن الساحلية، وخربوا الخارجة عن قبضتهم، واضطرب الوضع داخليا، وهيمنت الحروب الأهلية، وانقطعت خطوط التجارة، وعمت الفوضى، وانعدم الأمن، وتوالت المجاعات، وانتشرت الأوبئة، وطغى الفقر، وشاعت الدروشة، وتحكم الاستبداد في علاقة السلطة برعاياها[11]. ضمن هذا المناخ الذي ساد به الخوف من كل شيء، تعاظم دور المتصوفة وتزايدت الرباطات والزوايا، وعجت بالمتدروشين الداعين إلى ثقافة

---

[9] الحسن اليوسي، رسائل اليوسي، تحقيق ودراسة فاطمة خليل القبلي، دار الثقافة، البيضاء،، ج 1، ص 231.

[10] - الحسن اليوسي، المحاضرات، مطبوعات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، الرباط، 1976، ص 126/124/46. - رسائل، مصدر سابق، ج 2، ص 421. - نجمي، مرجع سابق، ص 230.

[11] نتوفر على العديد من الدراسات التي تفيد في الموضوع، منها :

- أحمد بوشرب، مغاربة البرتغال خلال القرن السادس عشر، منشورات كلية الآداب، الرباط، 1996، ص 41-69.
- محمد استيتو، الفقر والفقراء في مغرب القرنيين 16 و17م، وجدة، 2004.
- عبد المجيد قدوري، المغرب وأوربا ما بين القرنيين الخامس عشر والثامن عشر. (مسألة التجاوز)، المركز الثقافي العربي، البيضاء، 2000، ص 79-133.

الخلاص من هموم الدنيا ومتاعبها، والاستعداد المستمر للحياة الأخرى الدائمة. فبقدر ما كان التصوف عامة والشعبي على الخصوص في حاجة إلى واقع متأزم ليعيش ويتقوى، كان مجتمع الأزمة في احتياج مستمر لشيوخ التصوف وما يتخرج على أيديهم من أولياء. فاشترك المتصوفة بمعية كتب التراجم والمناقب مع إنسان مجتمع الأزمة في تطوير المكانة التي يجب أن تكون للولي. فحسب التادلي (ت.617هـ) "فإن الفائدة في ذكر أولياء الله تعالى تقوية سالك طريق الآخرة"[12]، وذلك حتى تنبعث همته لطلب المزيد[13]. ويشترك ابن عسكر (ت.986هـ/1578م) مع صاحب كتاب التشوف في التأكيد على أن "ذكر الصالحين كفارة للذنوب" ومنزلة للرحمة[14]

وهكذا سعت كتب المناقب إلى الترويج لنظرية النجاعة الشاملة للولاية، فبفضل الولي يحفظ الله العباد والبلاد[15]. والفرد بالمجتمع إما صالحا أو محبا للصالحين[16]. وبدت تراجم هؤلاء الصلاح، وكأنها مرآة تعكس هموم المجتمع وطموحاته. وفي آن الوقت، كان يقوم النص المنقبي أو أدب المناقب بدور تبريري لإضفاء المشروعية السنية على تزايد أهمية الصلحاء، وترويج كل ما يزيد في ترسيخ الاعتقاد بهم. فقد كان أحدهم يقول لأصحاب سيدي يوسف الفاسي (ت. 1013هـ) : "احمدوا الله الذي أعطاكم هذا الشيخ المتين، تصارعون به هذا الزمان الصعب"[17]. وحب الأولياء والتقرب إليهم، يضيف القادري (ت.1187هـ)، من أفضال الله علينا، إذ منّ "علينا بتعظيم مقدارهم والفوز بأن نكون معهم في جوارهم"[18]. وعن أبي الحسن علي بن حرزهم (ت. 559هـ) كتب التادلي : "أوصاني

[12] يوسف التادلي، التشوف إلى رجال التصوف، وأخبار ابي العباس السبتي، تحقيق أحمد التوفيق، منشورات كلية الآداب، الرباط، 1984، ص 38.

[13] محمد الكتاني، سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس بمن أقبر من العلماء والصلحاء بفاس، تحقيق عبد الله الكتاني، دار الثقافة، البيضاء، 2004، ج 1، ص 16.

[14] التادلي، مصدر سابق، ص 38.

[15] التادلي، مصدر سابق، ص 31.

[16] التادلي، مصدر سابق، ص 38. الكتاني، مصدر سابق، ج. 1، ص 15، تللي سلامة، مرجع سابق، ص 299-200-319.

[17] محمد المهدي الفاسي، ممتع الأسماع في ذكر الجزولي والتباع وما لهما من الأتباع، ص 218.

[18] محمد بن الطيب القادري، نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني، تحقيق حجي محمد، التوفيق أحمد، دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، الرباط، ج.2، ص 356.

أبي أن أقبل يد أبي الفضل بن النحوي متى لقيته، ولو لقيته في اليوم مائة مرة"[19]

وفي هذا الجو المفعم بالمبالغة في تبجيل الأولياء، وشيوخ التصوف، بدأت تتشكل الملامح الكبرى للولاية، وذلك عن طريق نشر مناقبهم وتدوين كراماتهم، حتى أصبح هذا النوع من الكتابة هو الغالب في مجال التأليف. ورغم تأكيد كتب المناقب والكرامات على تراتبية الأولياء واختلاف درجاتهم، فإنها بالمقابل، أجمعت على الدور المركزي الذي أصبح يقوم به الولي داخل المجتمع، وذلك بفعل قدرته الفائقة على قضاء حوائج الناس، عن طريق البركة والدعاء والمحرم والشفاعة[20]

## 2- الكرامة أو ممارسة الولي "للعنف المقدس"

حاولت كتب التراجم والمناقب ترسيم ثقافة الكرامات، ودافعت باستماتة عن شرعيتها، وهاجمت كل من بقي يعترض أو على الأقل يتشكك في كثرة الأولياء وسيادتهم، وهددته بسوء العاقبة. فالذي لا يحب الأولياء أو يعاديهم "فقد بارز الله بالمحاربة، وأن الله يحب الأبرار الأصفياء الأتقياء"[21]. وحسب القادري :"قال صلى الله عليه وسلم، من عادى لي وليا فقد أذنته بالحرب، الحديث أخرجه البخاري وغيره، قال النووي : ومعنى آذنته، أعلمته بأني محارب له، وهذه سنة الله فيمن تجبر على حرم الله من أولياء من عباده، واستخف بهم في سائر أرضه وبلاده"[22]. وبما أن المرء لا يتوفر على أية وسيلة بيانية ملموسة لفرز الولي عن المدعي للولاية، فالواجب عليه إذن الاعتقاد بكل الأولياء، واستخدام حسن النية فيهم. أما قول بعض العامة، نقلا عن الكتاني : "تحذيرا من اعتقاد من لم تتحقق ولايته من الأموات [كم من كرابز تحت الدرابيز] كلام بشع، غير صحيح، فلا يقبل من قائله لما فيه من سوء الأدب، إذ موجبه سوء الظن بالله

[19] التادلي، مصدر سابق، ص 98.
[20] يمكن الرجوع لكرامات التادلي، وابن عسكر، والكتاني، والقادري، والفاسي، انظر أيضا : تللي، مرجع سابق، ص 299-320-319، القدوري عبد المجيد، مرجع سابق، ص 142.
[21] التادلي، مصدر سابق، ص 46-47.
[22] القادري، مصدر سابق، ج.2، ص 356.

وبعباده"[23]. ومن أطلق لسانه في الأولياء والصالحين، يضيف الكتاني : "ابتلاه الله تعالى قبل موته بموت القلب"[24]

وعليه، وجب الاعتقاد المطلق بالأولياء وكراماتهم، ومن أنكر ذلك كان نصيبه كما وقع للفقيه الذي اعترض على أبي إسحاق ابراهيم أصاصاي (ت.615هـــ) : "وكان عبدا صالحا مجاب الدعوة، دعا على عيسى بن داود الفقيه، وقد أنكر عليه كرامات الأولياء، أن يختل عقله الذي يؤديه إلى إنكار الكرامات فحمق عيسى بن داود"[25]. وكان نصيب أحد المتشككين في ولاية سيدي عبد المجيد (ت.1003هـــ)، بعد أن حاول التحقق من قيام الولي بصلاة الجمعة أم لا، فقرر أن يتبعه : "فدخل ميضاة من مياض القرويين وغلقها عليه، وأبطأ، فألزم الرجل الوقوف ببابها حتى كادت تفوته صلاة الجمعة، فدفع الباب لم يجد في الميضاة أحدا، ثم أصيب هذا فاتهم بسرقة فقطعت يده، وبعد قطعها تحققت براءته منها"[26]. ولم تكن اليد المقطوعة إلا تلك التي دفعت على الولي باب المرحاض. ويذكر التادلي في ترجمة أبي علي يغمور (ت. 590هـــ)، وكان ينكر على الأولياء كرامات المشي في الهواء، فجاءه أبو مهدي برجلين، فأدخلهم أبو علي يغمور بيته، وذهب لإحضار الطعام، غير أنهم فضلوا الطيران فوق سقف بيته، وهم يقولون له :"كل طعامك أيها الشاك ! ولم يزل ينظر إليهم إلى أن استعلوا في الهواء، فصاح ومزق أثوابه ووقع مغشيا عليه، فجاءه والده، فلما أفاق سأله عن سبب غشيانه، فأخبره، فقال له والده : مالك وأولياء الله تعالى تنازعهم ! فمن حينئذ لزم يغمور الطريق إلى أن لحق بالرجال"[27]. فأصبح هو الآخر يطير ؟.

والولي، حسب كتب المناقب، لا يخطئ، ومن اعتقد ذلك فقد أجرم. فقد لاحظ علي بن حزرهم عندما كان زائرا لابن النحوي، أن هذا الأخير صلّى عند غروب الشمس قبل الوقت الذي يصلي فيه أهل البلد، ولما أخبر والده بهذه الملاحظة، أهوى عليه فلطمه، وقال له : "أتتكلم في

[23] الكتاني، مصدر سابق، ج.1، ص 31.
[24] نفسه، ص 11.
[25] التادلي، مصدر سابق، ص 421.
[26] القادري، نشر، ج.1، ص 50.
[27] التادلي، التشوف، ص 286.

ولي من أولياء الله تعالى، وهل وقت المغرب إلا ذلك الوقت الذي صلى فيه أبو الفضل وإنما الناس ابتدعوا في التأخير عن ذلك الوقت"[28]. ومن الممكن أن يفعل الولي شيئا لا يليق بمقامه : "ولكن الولي إذا قدر عليه شيء، فإنه يفعله وهو حزين كئيب، ويحصل له الندم عليه والتوبة في الحال من غير تأخر"[29]. وعليه، وجب الانصياع كليا للولي، فهذا هو عين العقل، ولاينتج عن ذلك إلا الخير. فهذا أحد الفاسيين كانت تنتابه حالة خشوع مصاحب ببكاء أثناء قيام الشيخ أبي يعزى (ت. 572هـ) بالدعاء باللسان البربري، رغم أن صاحبنا هذا لم يكن يفهم كلمة مما كان يقوله الشيخ[30]. وعلى النقيض من هذا اعترض فاسي آخر، وهو عمر الكتاني (ت. 1278هـ) على رأي جماعة من الأولياء، مفضلا الاستشهاد في سبيل التشبث برأيه، لما كان يعلمه من عاقبة الاعتراض على الأولياء، وعدم مساعفتهم. ونقرأ في الموضوع بالسلوة، أن "سبب موته أنه اجتمع مع الأولياء في موطن، فاتفق رأيهم على وقوع شيء من البلايا، فقال هو، هذا لا يكون، وامتنع من موافقتهم، فضربوه ضربة مرض منها حتى مات، وكان يقول في مرضه ذلك : الحمد لله الذي جعل من قال قولا ومات عليه يكون شهيدا، والله لا يكون إلا ماقلت، وأنا أعطي رقبتي في سبيل الله ! !"[31]

## III – مظاهر ممارسة التخويف.

### 1- تضخم "العنف المقدس".

إذا كانت الولاية قد اعتمدت الخوف كوسيلة أساسية لإحكام سيطرتها الكاريزماتية بمجتمع غيب به العقل، فإنها بالمقابل، عمدت عن طريق الرواية الشفهية الشعبية والسرد المنقبي إلى تعميق هذا الخوف، والعمل على تضخيمه، فقدمت الولي وهو يملك سلطة قدسية رهيبة، مسلطة على رقاب الكل، مما جعل الكرامات وتداولها إشاعة حقيقية لثقافة

[28] نفسه، ص 98.
[29] الكتاني، سلوة، ج.1، ص 94.
[30] محمد التميمي الفاسي، المستفاد في مناقب العباد بمدينة فاس وما يليها من البلاد، تحقيق محمد الشريف، منشورات كلية الآداب، تطوان 2002، (القسم الثاني : النص)، ص 36.
[31] الكتاني، سلوة، ج.1، ص 131.

الهلع[32]، إذ أمام تداعيات الأزمة في الواقع، والبطش اللامتناهي لهذا الأخير بمجتمع مغرب العصر الحديث، كان المحكي المنقبي رعبا إضافيا، ومعبرا في نفس الآن عن الخوف السائد المعيش، وذلك في محاولة لدمج هذا الرعب المتخيل، وجعله حقيقة ضمن سياق الرعب العام. ولم تكن هناك أية وسيلة أمام السرد المنقبي إلا اعتماد أسلوب التضخيم، والغلو في التصوير. بحكم أنه يمثل سردا وحكيا عجائبيا. وباعتباره أيضا على مستوى التخييل ليس إلا استعارة للخوف بغية إشاعة الرعب[33]

وكان أهم سلاح استخدمته الكرامات لإشاعة الخوف من الولي، وتكريس هيبته على الجميع، ممثلا في الدعاء أو التلويح به فقط . وجعلت كتب المناقب من الاستجابة الفورية لدعاء الولي من أهم علامات الولاية، والوسيلة الوحيدة لشهرة الولي واتساع نفوذه. فعندما ذاع بين القبائل صيت عبد الله الجابري الرهوني (ت حوالي 930هـ)، وأظهر الله الاعتبار في الحين بكل من خالفه : "ولما اشتهر بذلك انقاد له الخلائق، فلم يقدر أحد على مخالفة أمره أورد شفاعته. وكانت إجابة دعوته كفلق الصبح"[34]. كما كان توعد الشيخ سعيد المشترائي (ت حوالي 960هـ)، وراء مرض ولد السلطان أحمد الوطاسي : "وتسلط عليه آكال في جسمه فتمزق لحمه فقطعت شيئا فشيئا، حتى تمزق جسمه ومات لأيام قلائل، فاعتبر الناس والسلطان من ذلك، ومن ذلك الوقت زاد الأمراء وغيرهم في احترام حرم زاوية الشيخ، حتى أن الذي يفعل ما عسى أن يفعل من عظائم الجنايات، ويلجأ إلى ساحة الزاوية فلا يتبعه أحد... وعندهم بالتجربة المكررة أن الذي يتخطى الساقية نصيبه عاهة في جسمه... وأن الأمراء يتحامون حماها احترازا من وقوع العاهات بهم في العاجل"[35]

---

[32] انظر :
- تللي سلامة، ص 310-323. نجمي، التصوف، ص 187-188.
- هاشم العلوي، مقدمة التقاط الدرر ومستفاد المواعظ والعبر، دار الآفاق، بيروت 1983، ص 51.

[33] في موضوع السرد العجائبي الفانتاستيكي انظر شعيب حليفي، الخطاب الفنتاستيكي والسرد الروائي، دبلوم دراسات العليا، مرقونة. (المقدمة).

[34] ابن عسكر، دوحة، ص 36.

[35] نفسه، ص 77-78. الفاسي، ممتع، ص 126.

وحسب الكتاني، لم تكن الناس تتجنب إذاية الولي أحمد بن يحيى البادسي (ت.1100هـ) إلا "لما يعلمون من سرعة الانتقام ممن أذاه"[36]. ويذكر التادلي، أنه :"كان يقال نعوذ بالله من دعوة ابن النحوي لأنه كان مجاب الدعوة"[37]. كما أن الناس كانت تتقي دعاء يحيى الصنهاجي (ت.601هـ) عليهم "لما جربوه من دعائه"[38]. ونقرأ في التشوف أن ابراهيم أصاصاي (ت. 615هـ) كان : "عبدا صالحا مجاب الدعوة"[39]. وحسب ابن عسكر، كان محمد الزيتوني (ت. أوائل القرن العاشر للهجرة) مجاب الدعوة : "يسمونه أهل التصريف من الصوفية بالحية العمياء الذي لاتعتق من لسعته لسرعة إجابة دعوته"[40]، وكان الشيخ أحمد زروق من أشهر ضحاياه، إذ لما استقبل هذا الأخير من قبل الشيخ أحمد بن عقبة الحضرمي بمصر قال له :"يا أحمد ياولدي، ما جرى لك مع الأفعى العمياء ! وإني لمشفق عليك منه ها هنا، فحمله إلى بيت عنده وأمره بلزوم الذكر، فبعد ثلاثة أيام سمع الشيخ ابن عقبة رجة عظيمة وهو مع أصحابه فصاح : الله، ورفع يده ثم قال : قوموا بنا، فقاموا فوجدوا البيت الذي كان به أبو العباس قد صار دكا، فقال ابن عقبة : احفروا على صاحبكم، ففعلوا إلى أن وجدوه في ركن البيت وقد طاحت الخشب عليه أولا، فدفعت عنه الردم، ونجا منه، فلما أبصر به الشيخ ابن عقبة قال : الحمد لله الذي عصمك يا أحمد، وهذه آخر عقوبة الزيتوني، لقد ضربك ضربة من أقصا المغرب فرفعتها عنك بيدي..."[41]

وهذا عبد الواحد الزنبور (ت 1175هـ)، كان يشبه دعاءه بلذغ الزنابير، إذ قال للقاضي عبد الواحد بوعنان الذي حاول تقويمه :"اترك عنك الزنبور، ولا تتعرض له في شيء قبل أن تلذغك الزنابير، فلم يبال القاضي بكلامه، حتى وقع له ما وقع في فضيحة لاينبغي ذكرها، فكان الزنبور بعد ذلك يلقاه ويقول له : ما أنا بقاضي وإنما أنا زنبور"[42]. ووصلت

[36] الكتاني، سلوة، ج.1، ص 307.
[37] التادلي، التشوف، ص 97.
[38] نفسه، ص 414.
[39] نفسه، ص 421.
[40] ابن عسكر، دوحة، ص 71.
[41] نفسه، ص 49.
[42] الكتاني، سلوة، ج.1، ص 324.

الثقة بالنفس عند الشيخ يوسف الفاسي (ت. 1013هـ) فهدد اثنين قائلا لهما : "والله لولا أني أحن منكما لصيرتكما نصرانيين، فما أتيا زاويته بعد ذلك اليوم قط، ولااستطاعا ذلك ... وكان أحدهم يبعث إليه، ويقدم إليه الله أن يتركه يموت مسلما"[43]

وهكذا، بدأنا نلحظ من خلال الدعاء والكرامات استفحال ظاهرة استعمال "العنف المقدس"، وتطور كيفية تعامل الأولياء معه، وتنوع طرق توظيفهم له. فإذا كان الكثير من أولياء التادلي (ت 617هـ) يعمدون إلى إخفاء كراماتهم، ويتخذون من سلاح الدعاء وسيلة لإبقائها في طي الكثمان أو يفرون من الشهرة عند انتشارها[44]، فإن الغالب على أولياء مغرب العصر الحديث التنافس في إظهار المناقب، والافتخار بها، وإذاعتها بين الناس. فعلى سبيل المثال، كان الولي أحمد بن محمد اليمني (ت. 1113هـ) يقول : "إذا أذاني أحد ففاضت عيناي أهلكه الله لا محالة"، فلما سمع بهذا الكلام الولي أحمد بن عبد الله معن (ت. 1120هـ) قال : "وأنا إذا أذاني أحد وضحكت، أخذه الله"[45]. ورد الولي أحمد الشويخ السريفي (من أهل القرن العاشر للهجرة) على القبائل التي اشتكت إليه القائد طلحة العروسي سائلة إياه الدعاء عليه : "فقال هممت أن أدعو عليه، فقيل لي لا تفعل، فإنه صالح الظلمة"[46]

## 2- من ممارسة "العنف المقدس" إلى إشاعة "الرعب المقدس".

يبدو أن هذا العنف الممارس من قبل الأولياء، بفعل كراماتهم وخاصة الدعاء المستجاب، قد مر عبر مرحلتين أساسيتين : مرحلة ممارسة "العنف المقدس" قصد تحصين الذات، وتوطين الأولياء بمركز الريادة المجتمعية، وهي مرحلة تتناسب وانتشار التصوف السني وترسيمه بالمغرب. أما المرحلة الثانية، فتتميز بالمبالغة في استعمال "العنف

[43] الفاسي، ممتع الأسماع، ص 100.
[44] التادلي، التشوف، ص 184/103. محمد الشريف، القسم الأول، الدراسة، المستفاد، ص 159-162.
[45] الكتاني، سلوة، ج.2، ص 379.
[46] ابن عسكر، دوحة، ص 37.

المقدس"، تحول معها الولي، في بعض الحالات، إلى عنف مضاد، عمق الرعب العام السائد بمجتمع المغرب الحديث، وقد توافق ذلك مع انحصار التصوف السني، وانتشار التصوف الباطني في حلته الشعبية.

ويمكن اعتبار السرد المنقبي لكتاب التشوف نموذجيا في التعبير عن أولياء المرحلة الأولى، حيث يلاحظ على ممارسة العنف المقدس به، تقديم صورة نمطية عن الولي النموذج، وتحديد العلاقات التي يجب أن يحترمها الكل في علاقته بالولي. فهذا الأخير يمارس "العنف المقدس" كسلاح دفاعي، فهو شخص مقدس لا يمكن امتحانه أو اختباره، ولا يجب التعدي على أملاكه، ولا رد شفاعته[47]. ومطالب الولي لا يمكن أن تكون إلا مستجابة، وهبته محفوظة[48]. وتجتمع جميع المخلوقات مع بني الانسان في تقديس الولي والرفع من مقامه. فالأسود، حسب السرد المنقبي للتادلي، كانت تخاف الأولياء وتحترمهم، وتخضع هي الأخرى للعقاب إذا تجاوزت الحدود المرسومة. فقد خرج علي بن حرزهم إلى الأسد "وفتل أذنيه وضربه بالقضيب، وقال له: ألم أقل لك لا تروع أصحابي، ففر الأسد أمامه"[49]. وتجاوز الشيخ أبي يعزى (ت. 572هـ) هذا، فاغتنم فرصة تهجم أحد الأسود على دابة واحد من جماعة المنكرين من أهل فاس الوافدين عليه، فصاح على الأسد، ودنا منه "إلى أن أخذه بأذنيه ونحن ننظر إليه، فقال لأصحابه اركبوه، فهابوا ركوبه، قال ميمون: فوثبت على ظهره وأجريت مرات، والواصلون للإنكار على أبي يعزى ينظرون إلي على ظهره"[50]. ويبدو أن الشيخ قد قضى أغراضا عدة من عمله هذا، حيث كان أولياء التادلي يلجأون إلى الأسد، ويتخذون من انقياده لهم، وسيلة لإقناع الإنسان بضرورة أن يحدو حدوه، وترك وسواس الإنكار جانبا. كما اتخذوا من كرامات الأسد، دعوة للناس بضرورة الاهتمام بهم، فقد ذهب أحدهم إلى الشيخ عبد الرزاق الجزولي، وكان وقتئذ يحتطب بالغابة :"فوجد الشيخ ما بين الشجر، والأسد يكسر له الحطب، فجمعه

[47] التادلي، التشوف، ص 98-99-103-111-119-131-134-143-149-215-234-285-289-309-323-400-418-455-463-470.
[48] نفسه، ص 84-87-111-112-170-220-311-359-398-421.
[49] نفسه، ص 172.
[50] نفسه، ص 216-217.

الشيخ، وربطه بالحبل وجعله على ظهر الأسد، فحمله الأسد إلى أن قرب من العمران، فأنزل الشيخ الحطب عن ظهره، ورجع الأسد إلى الغابة"[51]. كما كان الأسد يقوم بحراسة الولي[52]، وكذا الدواب التي يأتي بها زوار الولي[53]

وبالغت الطبيعة في احترام أولياء التادلي، والخوف من التعدي عليهم أحياء وأمواتا، فقد جاء في ترجمة ابن موسى المليجي الذي أوصى بأن يدفن برباط شاكر "فلما مات حملوه على جمل، فلما وصلوا وادي تانسيفت وجدوه كثير الماء من شدة السيول لا يدخله أحد، فانفلق الوادي وجاوزوه ثم عاد كما كان"[54]. كما أن الطعام الحرام لا يدخل جوف الولي، فهو إما يكلمه مخبرا إياه بأنه من مصدر حرام[55]، أو تظهر بالطعام علامات تدل الولي على فساده[56]. فالولي، كما يقرر كتاب التشوف، لا يقترب حتى من الطعام الذي هيأه تارك الصلاة[57]، ولا يأكل الثمر الذي اقتطفته من النخلة امرأة حائض[58]. وبالمقابل، فالعنب الذي لمسه الولي لا يمكن أن يصنع منه الخمر، كما أن العنب المسروق يصير حجرا في فم الولي. وعندما يقدم للولي رمانا مختلطا من حيث مصدره، فإنه لا يأكل إلا الحبات الحلال، ويترك الأخرى التي يكون مصدرها مشبوها[59]

والغالب على مناقب أولياء التادلي، أن ممارسة "العنف المقدس" بها تكون ذات بعد تربوي، فهي تنتهي عند من مورس ضدهم هذا العنف بالتوبة إلى الله، والكثير من هؤلاء التوابين يلتحقون بصف الصلاح[60]. كما تعكس هذه المناقب الطابع المميز للولي، فهو ميال إلى التقشف والزهد، ويفضل الابتعاد عن الناس، والاعتماد على نفسه في قضاء أموره الدنيوية. وأخيرا، فإن "العنف المقدس" الذي يمارسه، موجه بالأساس ضد

---

[51] نفسه، ص 329.
[52] نفسه، ص 168.
[53] نفسه، ص 217.
[54] نفسه، ص 126.
[55] نفسه، ص 318.
[56] نفسه، ص 290-352-353-364.
[57] نفسه، ص 368.
[58] نفسه، ص 307-308.
[59] نفسه، ص 243-251.
[60] نفسه، ص 86-87-111-192-215-219-220-234-286-311-361-400.

الصعوبات الطبيعية، والعسف بجميع أشكاله، وأيضا ضد كل متشكك أو منكر للولاية من فقهاء وعوام. وبهذا كان الولي مصدر خير ورحمة للجميع، فحتى عندما يقدم لك الولي عسلوجا من عساليج الكلخ أو قلبا من قلوب الدفلى، فبادر إلى أكلهما، تؤكد مناقب التادلي، فلن تجد بهما إلا الطيب والحلاوة[61]

ويبدو أن أولياء مغرب ما بعد التادلي، أخذوا يتوسعون، ولاسيما بعد أن أصبح التصوف والولاية يوفر لأصحابه الجاهين الروحي والمادي. وتحولت الزاوية إلى مؤسسة لتكريس التبعية، وبسط النفوذ إلى حدود إقرار "عصبية المقدس"[62]. وكان ذلك ضمن مرحلة استفحل بها الوضع على جميع المستويات، ومثل فيها القرن العاشر للهجرة (القرن السادس عشر للميلاد) نقطة تحول أساسية نحو الأسوأ. وإذا كان لكل هذه المؤشرات التاريخية تأثير في التطورات التي ستطرأ على ممارسة "العنف المقدس"، فإن النصيب الأوفر من هذه التطورات يرتبط بالخصوص بالتغيرات التي لحقت بممارسة التصوف نفسه، وانتشار مذهب أهل الملامة الذي حاول أن يختصر كل المشاكل التي كان يعيشها إنسان تلك المرحلة في النفس، ويحملها مسؤولية ماوقع، ويدعو بالتالي إلى مناصبتها العداء. وهو ما أدى إلى تحول في طبيعة الأولياء أنفسهم، إذ بدأت ترتفع بينهم نسبة المجاذيب والبهاليل وساقطي التكليف[63]. فتبوأ أهل الأحوال مكانة متميزة في التصوف المغربي، ساعد على تخريج عدد هائل من الأولياء بمواصفات خاصة، تختلف إلى حد كبير عن مواصفات أولياء التادلي. فقد ذكر الكتاني أن أبا الشتاء الخمار (ت. 997هـ) "كان كثير التلميذ، وخرج منه كثير من البهاليل وأهل الأحوال، وكان وقته كثير البهاليل، فكان يقال : إن أكثرهم ممتدون منه لقوة حاله التي شهد بها مشاييخ عصره فمن بعدهم"[64]. ولاحظ الحسن اليوسي (ت. 1102هـ) هذه الثنائية

[61] نفسه، ص 207-216.
[62] انظر : اليوسي، المحاضرات، ص 46. نجمي، مرجع سابق، ص 230.
[63] العلوي، مقدمة، ص 51، مفتاح، التيار الصوفي، ص 294. التادلي، التصوف، ص 86. انظر أيضا كتابات أحمد الوارث عن أولياء القرون 16-17-18.
[64] الكتاني، سلوة، ج.1، ص 155.

السائدة في عصره بين الجنون وادعاء الصلاح[65]. وقد أكدت أهم الدراسات التي أنجزت حول التصوف المغربي خلال العصر الحديث على ظاهرة التزايد المهول لأعداد الأولياء البهاليل والمجاذيب[66]

وضمن مناخ صوفي يغلب عليه الجذب، مال الأولياء إلى ممارسة "عنف مقدس" تنعدم به ضوابط عنف أولياء التادلي، إذ تميز عنفهم بالشراسة. وتحول الأولياء، أو نسبة كبيرة منهم، إلى كائنات مخيفة ومستفزة في الكثير من الأحيان. وتماهى هؤلاء في الإعجاب بقدراتهم الهائلة على استعمال "العنف المقدس"، وتلقبوا بألقاب تدل على ذلك، مثل الزنبور والأفعى والغول. ومما يؤكد على حدوث تحول في ممارسة "العنف المقدس" وبالتالي التصوف، دخول أولياء هذه المرحلة في صراعات مكشوفة فيما بينهم. فأشهر من لسعته الأفعى كان الشيخ القطب أحمد زروق، وكان جلول بن الحاج العيساوي (ت. 1037هـ)، تذكر السلوة : "غول من الأغوال، وكان سيدي قاسم الخصاصي، رضي الله عنه، يتردد عليه ويزوره، وكان إذا جلس قدامه فصاح، لم يتمالك سيدي قاسم أن يصيح معه"[67]. بينما كان محمد الشرقي (ت. 1010هـ) يرد على الذين يلمحون إلى المنافسة الموجودة بينه وبين أحمد بن القاسم الصومعي التادلي قائلا : "أنا وسيدي أحمد بن أبي القاسم كحجر الرحا من صار بيننا طحناه"[68]. في حين اتخذ عبد الله الغزواني (ت. 935هـ) من تزايد شهرة رحال الكوش بمراكش ومزاحمته له موقفا مغايرا، إذ أوحى للكوش بضرورة مغادرة مراكش قائلا له : "إما أن تتركها لي، أو أتركها لك، وأما حنشان في غار فلا يجتمعان"[69]. كما كان يوسف بن الحسن التليدي (ت. حدود 950هـ) "كثير الكتب للنواحي يأمر الناس بالتوبة، ويشوقهم في الاطلاع على الكرامات، ويشير كثيرا إلى مقام الأفراد من الأولياء، وكان الشيخ أبو محمد الهبطي كثيرا ما ينكر عليه تلك الدعاوي، وينهيه عن إفشائها، وهو على شأنه، فدعا عليه أبو محمد فخرس لسانه، وتعطل عن

[65] اليوسي، المحاضرات، ص 45.
[66] انظر كل الدراسات التي أشرنا إليها سالفا، وخاصة أبحاث الوارث والشاذلي.
[67] الكتاني، سلوة، ج.1، ص 228.
[68] القادري، نشر، ج. ص 81.
[69] الفاسي،، ممتع، ص 62-63.

الكتب بيده، وبقي بذلك إلى أن مات رحمه الله، وكان الشيخ أبو محمد لا يريد من يتكلم فيه بسوء"[70]

والتقى الولي عمر الخطاب الزرهوني بالولي سيدي سعيد بن أبي بكر المشترائي (ت. حوالي 960هـ)، وكانا "كلاهما راكب في أصحابه، فترجل سعيد عن فرسه، فسلم على سيدي عمر، ولم ينزل له سيدي عمر. فكأن أصحاب سيدي سعيد وجدوا في أنفسهم من ذلك، فعرف ذلك سيدي سعيد، فقال لهم : جزى الله سيدي عمر عنا خيرا، إذ لم ينزل لنا، فلو نزل لم يمش أحد منا بكسائه، يعني، الأحوال وأنهم يسلبونها"[71]. وفي نفس السياق، يذكر ابن عسكر أن أبا الحسن السريفي، كان من تلامذة علي بن عثمان الشاوي (ت. حدود 940هـ) وظهرت له كرامات، فاعتقد بأنه أضحى أبلغ من شيخه، وأنف الانتساب إليه، وهو ما أغضب الشيخ "ثم رأى السريفي فيما يرى النائم أن قمرا خرج من صدره وصعد إلى السماء، فكان ذلك سلب الحكمة عنه فما اجتمع إليه بعد هذا اثنان، وبقي على ذلك إلى أن مات، ولما بلغ ذلك إلى الشيخ أبي محمد الغزواني قال : ذلك جزاء من يكفر بإحسان شيخه"[72]

وأما سيدي أحمد الشاوي (ت. 1014 هـ)، فكان شديد الترهيب لأصحابه، إذ كان "يقول لمن رآه يلتفت لغيره منهم، من لم يقنعه السبع يأكله الذئب. ويقول أيضا : صاحبي إن وجدته على باب أحد قرضته، يعني : كسرت عظامه، يريد بذلك إهلاكه، وله في ذلك مع أصحابه حكايات كثيرة"[73]. ويحكي ابن عسكر، أنه عندما كان مصاحبا للشيخ الولي عبد الوارث بن عبد الله اليصلوتي (ت. 970هـ)، رآه ذات مرة، يزجر واحدا من أصحابه "عن الكلام وأمره بالصمت، لم يتكلم إلى أن مات"[74]

وهكذا، أصبح أي احتكاك بالأولياء الأحياء يشكل مصدر قلق لكل الناس، وتحول لقاء الأولياء، وخاصة بالمدن، إلى امتحان حقيقي، قد

[70] ابن عسكر، دوحة، ص 17-18.
[71] الفاسي، ممتع، ص 75.
[72] ابن عسكر، دوحة، ص 35.
[73] الكتاني، سلوة، ج.1، ص 312.
[74] ابن عسكر، دوحة، ص 6.

ينتهي بكارثة، ولم يعد كما كان عليه الأمر سلفا فأل خير ويمن وبركة، يسعى إليه الناس جاهدين. فهذا سيدي احساين بن محمد القواس (ت. 1111هـ)، كان في طريقه إلى داره الموجودة بالقلقليين بفاس القرويين، وعندما اقترب من الحي الذي يسكنه، أبصر بسوق الرصيف الولي سيدي أحمد بن عبد الله معن الأندلسي "فرجع من الطريق إلى طريق أخرى على رحبة الزبيب، على عقبة العيون إلى داره وهو يقول : طريق السلامة ولو دارت"[75]. ويروي ابن حمدون بن الحاج (ت. 1232هـ) أن والده عاد الولي سيدي محمد بن أحمد الصقلي (ت. 1232هـ) بداره : "فلما تصافحا، قبض على يده وغمض عينيه، تغميضا خارجا عن المعتاد، ثم فتحهما كذلك، فخرج الوالد وهو يبكي، وقال : إن هذا الرجل من الأولياء، أشار بتغميض عينيه وفتحهما إلى انقضاء أجلى في الدنيا، وصيرورتي إلى عالم آخر"[76]. بالطبع سيموت صاحبنا بعد ذلك بنحو 25 يوما !. ودخل يوما الولي أحمد الخبزي السفيان العجالي (ت. 1091هـ) "لزاوية الشيخ أبي محمد سيدي عبد القادر الفاسي، فوجده يقرأ العلم وهو جالس على الكرسي، فجعل يصيح ويتمرغ في الزاوية، فلما فرغ الشيخ من القراءة، قال : أعود بالله ! إن هذا الرجل لا يشير بخير فقط . فمن الغد طعن الشيخ"[77]

## IV- إلى هنا وصل تاريخ الخوف.

انطلاقا من القرن السادس عشر، سيتحول المجاذيب والبهاليل وكل رجال الأحوال عامة إلى نجوم في سماء التصوف المغربي، والثقافة المروجة حوله. فأصبحوا يتملكون قوة قاهرة، مارسوا بواسطتها التسفيه بالناس، وإرهابهم، وإرغامهم على الاستجابة لكل مطالبهم. فالعزل والقتل والعاهة نصيب كل من لم يكن عند حسن ظن الولي من رجالات الدولة[78]. وبما أن المولى اسماعيل (ت. 1139هـ) كان لا يسمح لمثل هؤلاء أن يتجاوزوا حدودهم وإسقاط التكلف كما كان يحدث أحيانا مع

[75] الكتاني، سلوة، ج.1، ص 379.
[76] نفسه، ص 147.
[77] نفسه، ص 235.
[78] ابن عسكر، ص 79-80. ا لكتاني، سلوة، ج.1، ص 126-136-228-236-298-307. الفاسي، ممتع، ص 207. القادري، نشر، ج 2، ص 337.

المولى الرشيد[79]، فقد كان يأتونه الأموات منهم أثناء نومه شاهرين الشواقير في وجهه مهددين السلطان وآمرين إياه بالابتعاد عن التعرض لمن لهم صلة بهم. وبالطبع، لم يكن أمام السلطان، يحكي مروجو هذه الكرامات، إلا الخضوع والامتثال[80]

لقد أشاع هؤلاء الأولياء ثقافة قوامها التخويف، وذلك بالموازاة مع ممارسته على أرض الواقع، وخاصة بالمدن الكبرى مثل مدينة فاس. فقد كان أحمد بن عمر (ت. 1066هـ) : "من عادته أنه، إذا أعطى لأحد قفة، أو أزال العنكبوت عن باب دار، يعلم أن صاحب القفة يموت بالقرب، وأن بالدار أحدا يموت بالقرب"[81]. وكان عبد الله يزرور (ت. 1199) يدخل المساجد وقت إقامة الجماعة للصلوات بفاس، ويبدأ في السب والشتم، كما كان "يفعل، أيضا، مثل ذلك في مجالس العلم حتى يفسد على المدرسين تقاريرهم، ولايمكنهم إلا السكوت حتى يذهب"[82]. أما الولي المجذوب احساين الأقرع (ت. 1262هـ)، فقد كان "يسيح في الأزقة والأسواق، ويدعو بالعمى واللهفة، ويرمي كلاوي البصاق على بعض من يمر به من الناس، فلا يأتي بها إلا في عينيه أو فمه"، وهكذا حسب النصيب، وأين انتهى البصاق، فإما الجوع أو ذهاب النظر[83]. وفي بعض المرات كان الولي علي بن حمادوش (ت. 1135 هـ) يمارس الرعب على المارة، ويصبح "كالأسد يضرب الناس بما وجد من عصا أو حجر أو أنية أو غير ذلك، ولايقدر أحد أن يقرب منه"[84]. وحاول أحد الأولياء أن ينقل هذا الرعب إلى فرجة، فكانت "له زراويط يمسك بعضها في بعض الأوقات بيده، ومكحلة صغيرة يخليها لجهة السماء، ساعة بعد ساعة، ويقول : هاك أبوه ! "كأنه يضرب بها شخصا"[85]. ومرة أتى أحد الأولياء إلى أحد الباعة "طالبا منه خبزة وخليعتين، فلم يجبه على طلبه، لما فهم من إشارته بذلك لموت ولدين من أولاده، وقال له : أنا بالله وبالشرع معك لا أعطيك شيئا،

[79] الكتاني، سلوة، ج.1، ص 307.
[80] نفسه، ص 314/258.
[81] نفسه، ص 217.
[82] نفسه، ص 236.
[83] نفسه، ص 139.
[84] نفسه، ص 404.
[85] نفسه، ص 190.

فقال له : لابد من ذلك، ولا أذهب إلا إذا أخذتهما، فدفعهما له ودموعه تقطر على لحيته"[86]

وهكذا ساب الأولياء، وافتقدوا لكل ضابط، وتحولوا إلى عالة تعيش على حساب مجتمع يشتكي القلة في كل شيء إلا الخوف والرعب والتسلط والجهل، إذ يمكن للولي أن يقتحم الدار على أصحابها، ويستقر بها ما شاء من الوقت، وأصحاب الدار في خدمته. ثم ينتقل إلى دار أخرى حسب هواه[87]. ونقرأ في السلوة أن أحد الأولياء من الأسرة الكتانية كان من جملة هؤلاء، إلا أنه كان "إذا أراد أن يبيت عند أحد من الناس لا يعلمه بذلك ولا يأتيه إلا بعد صلاة العشاء الأخيرة، ومضي شيء من الليل، فربما يجد رب ذلك المكان قد نام فيوقظه"[88]. والويل للذي لم يقم بالواجب، فقد تضرع أحدهم بوجع الضرس، فلم يستقبل صاحبنا الولي "ولما تركه، أخذه وجع الضرس واشتد به حقيقة فثاب إلى الله عز وجل"[89]. وهذه الواقعة، شبيهة بتلك التي وقعت لأحدهم عندما رأى أحد الأولياء يطلب "من إنسان ريالا، وامتنع من إعطائه له، قال فحلف له بالحرام ليعطيه إياه"، فأنكر ذلك في نفسه، وبينما هو نائم سيحلم بأنه جالس بأحد جوامع المدينة المنورة، وخطيب المسجد ينكر عليه ما اعترضه على الولي، فانتهى الأمر، كما قال :"ثم استيقظت مرعوبا، وثبت من الاعتراض عليه"[90]

ويبدو أن مواصفات الولي الجديد أدهشت السلطان محمد الشيخ المامون (ت. 1022هـ)، فتساءل باستغراب عن خروج أهل فاس طالبين العفو عما صدر عنهم من مخالفة، وهم مستشفعين في ذلك بوليين يغلب عليهما الجذب، وهما مسعود الشراط (ت. 1031هـ) وجلول بن الحاج العيساوي (ت. 1037هـ) "فقال لهم ما وجدتم من تتشفعون به إلا هؤلاء الخرائين"[91]. وهو نفس السلطان الذي وصف الولي عبد الواحد الدراوي (ت. 1032هـ) بما يشبه المصيبة، وذلك بعد أن علم أنه كلما وضع في

---

[86] نفسه، ص 127.
[87] نفسه، ص 227.
[88] نفسه، ص 140-141.
[89] نفسه.
[90] نفسه، ص 133-134.
[91] نفسه، ص 228.

السجن وجد طليقا، فقال لأصحابه :"دعوني من تلك البلية"[92]. أما السلطان مولاي الرشيد (ت. 1082هـ) فقد قدم وصفا دقيقا لهذه الشريحة من الأولياء، وذلك بعد أن واجهه أحمد بن يحيى الباديسي (ت. 1100هـ) بالكلام الساقط، واقتحم على السلطان خلوته في زيارة ضريح سيدي علي بن حرزهم فقال له المولى الرشيد : "علمت أنك من المرابطين أي الأولياء، ولكن أنت السفالي متاعهم أي، كما يشرح الكتاني، أفحش الأولياء وأعنفهم، وكلمة السفالي في الدارجة، ينعت بها كل من كان حاد اللسان كثير الصراخ بحق أو وبدونه"[93]

وبهذا اجتمع الواقع مع الرواية الشعبية المنتعشة ضمن مناخ صوفي خاص، في إنتاج أولياء يجسدون الخوف، ويجيدون ممارسته. فالولي الجديد عنيف وهو لا يزال في رحم أمه، ذلك ما نستشفه من الحالة التي وصف بها الشيخ اليمني فترة حمل سيدة كانت مقبلة على ولادة الولي عبد الله البرناوي (ت. 1088هـ)، فقد كانت "لاتحضر لهوا ولا زهوا ولا شيئا مما لا ينبغي حضورها فيه لمقتضى الشرع، إلا وأخذها وجع عظيم في جوفها وألم جسيم واضطراب وانعواج ونحو ذلك"[94]. كما لا يحق لنسوة الولي أن يتزوجن بعد وفاته، فإثر موت أحمد الشاوي (ت. 1014هـ) بقي ثلاث نسوة بدارهم قرب الزاوية "إلا واحدة منهن باعت نصيبها للآخر، وذهبت فتزوجت رجلا بفاس. فوقع لها وله، ما وقع من إصابتهما بالجذام"[95]. وفي بعض الأحيان تتحول المبالغة في الخوف من الولي إلى الحد الذي يمثل حدث وفاته فزعا إضافيا[96]

ويظهر أن الصورة التي انتهى إليها الولي بمغرب العصر الحديث، قد اكتملت ضمن البطاقة التي قدمها الكتاني عن الولي عبد الله يزرور (ت. 1199هـ)، وهي منقولة عن كتاب الروضة المقصودة لسليمان الحوات المعاصر له (عاش 1160-1231هـ)، جاء فيها : "وما

[92] نفسه، ج.2، ص 264. القادري، نشر، ج.1، ص 258.
[93] الكتاني، سلوة، ج.1، ص 307.
[94] القادري، نشر، ج.2، ص 224.
[95] الكتاني، سلوة، ج1، ص 314.
[96] انفرد موت الولي أحمد بن عبد الله معن (ت. 1120هـ) عند القادري بالوصف التالي : "وفزع لموته أكثر أهل فاس من الأشراف وأهل المروءة، وحضر جنازته جمع عظيم". القادري، نشر، ج.3، ص 192.

رأينا مثله في عصرنا زهدا وورعا، وهيبة وسكينة ووقارا وصمتا واعتبارا وغلظة ونفارا، وسطوة وجلالا، وعظمة في قلوب الخلق وكمالا، لا يخالف في ولايته شريف ولا مشروف، ولا مجهول ولا معروف، بل الكل إليه مذعنون ولخصوصيته مصدقون، غير أنه في أعينهم كالأسد الهصور، لايستطيع أحد أن يقرب منه حتى الجريء الجسور"[97]. وعبد الله يزرور هذا هو الذي أشرنا إليه سابقا، إذ كان يفسد على الناس صلواتهم، وعلى العلماء حلقات درسهم "ويأتي في خلال ذلك بكلمات قرآنية، إلا أنه ربما يحرف ألفاظها"[98]. ولهذا لا نستغرب إذا وجدنا المولى اسماعيل ينعت مجتمع الصوفية "بحزب الحمقا وأهل النوامس"[99]

وعليه، فقد ابتعدنا بالتدريج من الأولياء الذين يغلب عليهم العلم، كما كان عليه الحال مع أولياء المستفاد، وكذا التشوف[100]، نحو أولياء تغلب عليهم الأمية، إذ نحصي عند ابن عسكر (ت. 986هـ) ضمن 90 ترجمة لمشايخ مغرب القرن العاشر للهجرة، حوالي 57 وليا أميا أو شبه أمي. أغلبهم كانت له زاوية، وكان له أتباع وأصحاب. ونعتقد أن نسبة حضور الأولياء الأميين ضمن أولياء المغرب عامة، وبالبوادي خاصة، ستزداد تصاعدا خلال القرنيين الحادي عشر والثاني عشر للهجرة، وهو ما يتناسب مع التطورات التي لحقت بالتصوف المغربي، وتوجهه نحو هيمنة تصوف السالكين، وغلبة التيار الروحاني الباطني في صيغته المغرقة في الشعبية. وهو ما يعكس، في نهاية الأمر، الأزمة الشاملة التي كان يعاني منها المجتمع المغربي في عصره الحديث. فكان من البديهي أن نجد الفقهاء وكبار العلماء يقفون إلى جانب السلطة المركزية تارة، وبدونها في مرات أخرى، في مواجهة هذا المد، فتكاثرت النداءات المحدرة من مسايرة أهل

---

[97] الكتاني، سلوة، ج.1، ص 237.

[98] نفسه، ص 236.

[99] جاء في رسالة بعث بها المولى اسماعيل للعالم محمد بن عبد القادر الفاسي بتاريخ 1110هـ في موضوع الأزمة العسكرية ومسألة تجنيد الحراطين والعبيد : "...فجئنا نعمل منهم شيئا ونحارب بهم بغاة أهل فاس حتى طاروا من بين يدي شتاتا، واحد منهم قصد العرب، وواحد قصد الشراقة، وبعضهم دخل في الحياينة، وبعضهم قصد بني مالك، وبعضهم دخل لمدينة فاس، وبعضهم باع حصانه وعدة المخزن وتفقر واندرج في حزب الحمقا وأهل النوامس..." مخطوط الخزانة الحسنية، الرباط.

[100] محمد الشريف، القسم الثاني، المستفاد، ص 201-207.

البدع، ونبذ أتباعهم[101]. ورغم مشاكل الشيخ العلامة الحسن اليوسي مع السلطة الاسماعلية، فقد أعطى هذا الموضوع أولوية خاصة في حياته العلمية، فكان اليوسي كثير الاعتراض على المنحى الذي سار عليه التصوف بالمغرب، منبها من خلال كتاباته إلى الاختلالات التي أخذت تطغى على المنتسبين للفقر في زمانه[102]. فعزى كل ذلك إلى تراجع العلم أمام هيمنة الجهل، ورأى أن الحل في العودة إلى الاهتمام بالعلم والعمل على نشره[103]

لقد دافع اليوسي، وقبله وكذا بعده الكثير من العلماء، عن ضرورة تحصين العلم، وذلك عن طريق جعل نشر العلم والمعرفة من اختصاص الجوامع كما كانت دائما، واقتصار تلقين هذه العلوم والمعارف على أهل العلم والنظر ذوي الاختصاص. ورأوا أن التساهل الذي تم في هذه المسألة هو الذي قاد إلى تفشي البدع والزندقات. بمعنى إرجاع الريادة للعلم، وتجاوز هيمنة الشيخ بالمواصفات التي تحدثنا عنها سابقا باعتبارها خطوة أساسية للمصالحة من جديد مع العقل، وخاصة على المستوى المجتمعي العام. من هنا بدأت المسألة تتعقد، وتحولت إلى إشكالية خطيرة، ارتبطت أساسا بمفهومي "التجاوز" و "الرجوع". نتجاوز ماذا ؟ وما هي الوسائل المعتمدة لتحقيق هذا التجاوز ؟ ونرجع إلى أين ؟ وهل بإمكاننا الرجوع في تاريخ منطقه إلى الأمام ؟

تلك هي الاشكالية التي عانينا الكثير في سبيل صياغتها، ولازلنا حتى الآن نقاسي الأهوال في قضية الحسم فيها. وفي انتظار الحلول، استمر الإنسان بمغرب العصر الحديث وما سيأتي بعده، محاصرا بين "العنف المقدس" وآخر "غير مقدس" أكثر شراسة وضراوة وتنوعا.

---

[101] نجمي، مرجع سابق، ص 231-408-419. لطفي بوشنتوف، العالم والسلطان، منشورات كلية الآداب، عين الشق، البيضاء، 2004، ص 235-277.

[102] اليوسي، المحاضرات، ص 45.

[103] نفسه، ص 46. الرسائل، ج.1، ص 147 ؛ ج.2، ص 356.